مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية
المجلد 15 العدد 3 (السداسي الثاني 2023م)
ص. 179 – 212

الإعداد الفكري للدعاة إلى الله: أهميته وآلياته

The intellectual preparation of preachers, Its significance and mechanisms

د. محمود بطل محمد أحمد*
جامعة الشارقة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية (الإمارات)
Mahmoud.ahmed@sharjah.ac.ae

تاريخ الاستلام: 2023/01/30 تاريخ القبول: 2023/08/28 تاريخ النشر: 2023/12/15

ملخص البحث:

يأتي هذا البحث ليناقش إحدى أبرز القضايا المنهجية في الواقع الدعوي، وهي قضية الإعداد الفكري للدعاة إلى الله تعالى كاشفًا عن أمرين جوهريين: أهميته، وآلياته التي يتحقق من خلالها. **ويهدف هذا البحث إلى عدة أمور منها:** إظهار أهمية الإعداد الفكري للدعاة إلى الله، وإبراز آليات هذا الإعداد، وبيان دور المنهجية العلمية في الإسلام في تحقيق ذلك، كما يهدف إلى توظيف الإطار الفكري للتراث الإسلامي في القضايا الدعوية.

وقد استعملت في هذا البحث منهجين، هما: المنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي.

ومن نتائج هذا البحث أن تلبية الحاجة الإنسانية للتفكير تتطلب ملكة فكرية فاعلة مما يدلل على محورية الإعداد الفكري للدعاة إلى الله تعالى، ومنها كذلك أن السبيل للتصدي للشبهات هو الإعداد الفكري الذي ينتج عن فهم الوحي الإلهي وتدبره والإلمام ببراهينه وحججه، ومنها أن هناك ضرورة لمنهجية فكرية رصينة للتعاطي مع الاتساع في كم وكيف المستجدات المعرفية، ومنها أن المفاهيم تعد أساسًا لا غنى عنه من أسس البناء الفكري.

ومن هذه النتائج ضرورة وعي الدعاة إلى الله تعالى بالقواعد العقلية، وأن الأحكام الشرعية تمثل ميدانًا حقيقيا لتكوين العقلية الإسلامية، وأن إعمال العقل في التفريق بين درجات المعرفة هو إحدى العمليات التي توظف من خلالها طاقته.

ومن التوصيات التي أبديتها قيام العديد من الدراسات العلمية التي تستجلي أسس المنهجية الفكرية في الإسلام، واهتمام المؤسسات التعليمية بتقريب أسس البناء الفكري تقريبا عصريا للدعاة إلى الله تعالى.

* المؤلف المرسل: أستاذ مساعد بجامعة الشارقة

الكلمات المفتاحية: الإعداد، الفكري، الدعاة، الآليات.

Abstract:

The present study endeavors to investigate the intellectual basis of Dawa (advocacy) in terms of the methodology utilized. More precisely, the research aims to demonstrate the intellectual underpinnings of preachers and to explicate the operational mechanisms of these foundations. To achieve these objectives, the study employs two primary approaches, namely the inductive approach and the analytical approach.

One of the results of research is that there are several manifestations of the centrality of the intellectual preparation of the preachers, which is to meet the human need for thinking, and to be able to address suspicions and the expansion in the quantity and quality of knowledge developments, and that there are mechanisms for this preparation, which are the absorption of cognitive concepts and the need for the preachers to God Almighty to be aware of the rational rules.

Keywords: (preparation - thought - preachers - mechanisms)

مقدمة:

يدرك من يتأمل مسيرة هذه الرسالة الخاتمة أن انتشارها يمثل برهانا عظيما من براهين صدقها وقوتها الذاتية التي تتمثل في عقيدة صافية وشريعة محكمة وأخلاق راقية.

ولا شك أنه كان وراء هذا الانتشار العظيم ثلة من الدعاة الذين أخذوا على عاتقهم نشر أنوار هذه الرسالة في كل حدب وصوب، فانتشروا في الآفاق حاملين قيمها ممثلين لإنسانيتها فلم يمض سوى زمن يسير إلا وقد ارتوت القلوب الظمأى من شعوب الأرض بري هذه الرسالة.

وحين ندقق النظر أكثر وأكثر في المسيرة الحافلة لهؤلاء الدعاة نجد أنه كان لديهم منهجية معرفية وتأصيل فكري استطاعوا من خلال ذلك تحقيق عدة أمور:

الأمر الأول: فهم طبيعة الرسالة التي يحملونها من خلال التعمق في تدبر نصوص الوحي الإلهي.

الأمر الثاني: القدرة على التعاطي مع الفلسفات المتعددة التي كانت تعج بها البلاد التي انتشر فيها الإسلام.

الأمر الثالث: القدرة على التعامل مع المستجدات المعرفية التي تعد نتيجة عادية لتغير الإطارين الزمني والمكاني.

إن هذه الأمور الثلاثة وغيرها دللت على مدى القوة التأسيسية للإطار الدعوي الذي حمل هذه الرسالة والذي لا يمكن أن نقرأه قراءة منعزلة عن محيطه الاجتماعي والثقافي الذي شكله الإسلام.

ولما كان تأسيس المنهجية المعرفية للدعاة ينطلق من القوة المعرفية والحضارية للأمة فقد كان من الطبيعي أن يتراجع هذا التأسيس مع تراجع الأمة حضاريا ومعرفيا في القرون المتأخرة مما يجعل من الحديث عن حتمية التأصيل الفكري إحدى أهم الدوائر البحثية التي لا بد من تتبعها.

من هنا يأتي هذا البحث تحت عنوان **(الإعداد الفكري للدعاة إلى الله تعالى، أهميته وآلياته)** ليكون لبنة من لبنات إعادة البناء المعرفي العام للأمة وترشيد الواقع الدعوي الخاص.

وتبرز مشكلة البحث في أننا حين نرصد الواقع الفكري لعالمنا الإسلامي نجد أن هناك أزمة فكرية تشكلت خلال تراكمات زمنية ماضية، وتتمثل هذه الأزمة في العديد من المظاهر مثل تراجع المنهجية العلمية في التفكير، وعدم القدرة على التعاطي المنضبط مع الفلسفات الغربية، وانحسار المفاهيم الإسلامية في المجال التطبيقي وغيرها من المظاهر كل ذلك رغم عظم المخزون المعارفي للأمة وضخامة تراثها الفكري بمنهجيته الشاملة.

إن هذه إشكالية تستوجب البحث في ضرورة العمل على تأسيس فكري للدعاة إلى الله باعتبارهم من أوائل المسؤولين عن إصلاح الواقع الفكري للأمة من خلال خطاب وسطي مستنير ينطلق من الضوابط الشرعية الرصينة ويستقرأ الواقع الإنساني بعين بصيرة.

ويهدف هذا البحث إلى عدة أمور، وهي:

1. إظهار أهمية الإعداد الفكري للدعاة إلى الله.
2. بيان العلاقة بين الإعداد الفكري وقضايا الأمة التي تحياها.
3. إبراز آليات الإعداد الفكري للدعاة إلى الله تعالى.
4. إبراز دور المنهجية العلمية في الإسلام في الإعداد الفكري للدعاة إلى الله تعالى.
5. توظيف الإطار الفكري للتراث الإسلامي في التأسيس الدعوي.

وقد استعملت في هذا البحث منهجين، هما: المنهج الاستقرائي، والذي أتتبع فيه كلا من التاريخ الدعوي في الإسلام ومعطيات الواقع الدعوي المعاصر، والمنهج التحليلي والذي أقوم من خلاله بتحليل النصوص القرآنية والنبوية المؤصلة للإعداد الفكري للدعاة إلى الله.

وقد أتى هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين على النحو التالي:

المقدمة: وبينت فيها أهمية الموضوع، ومشكلة البحث، وأهدافه، ومنهجه، وخطته.

التمهيد: ضبط المفاهيم.

المبحث الأول: أهمية الإعداد الفكري للدعاة إلى الله.

المطلب الأول: تلبية الحق الإنساني في التفكير.

المطلب الثاني: خطورة الشبهات وتشعب مظاهرها.

المطلب الثالث: تنامي المستجدات المعرفية. المطلب الرابع: الخلل في منهجية التفكير لدى بعض المدعويين.

المبحث الثاني: آليات الإعداد الفكري للدعاة إلى الله.

المطلب الأول: استيعاب المفاهيم المعرفية التي أصلها الوحي الإلهي.

المطلب الثاني: إدراك مهام العقل ووظائفه.

المطلب الثالث: التمكن من القواعد العقلية.

المطلب الرابع: التبصر بعلل وحِكَم الأحكام الشرعية.

المطلب الخامس: التمرس على التفريق بين درجات المعرفة.

المطلب السادس: تفعيل دور المؤسسات المكونة للعقلية الدعوية.

التمهيد: ضبط المفاهيم:

الإعداد الفكري مركب وصفي، ومن المعلوم أن تحليل المركب يحصل بتحليل جزئيه أولا، لذا فسنذكر مفهوم الإعداد ثم مفهوم الفكر، ثم نستخلص من خلالهما مفهوم الإعداد الفكري.

أولا: مفهوم الإعداد:

جاء في مقاييس اللغة: "الإعداد هو تهيئة الشيء يقال: أعددت الشيء أعده إعدادا. واستعددت للشيء وتعددت له." [1]

وجاء في لسان العرب: "العُدَّةُ: ما أُعد لأمر يحدث مثل الأهبة. يقال: أعددت للأمر عدته. وأَعَدَّه لأمر كذا: هيأه له. والاستعداد للأمر: التهيؤ له." [2]

وجاء في التوقيف: "الإعداد: بالكسر، التهيئة والإرصاد، وأكثر استعماله في الموجود."[3]

إن هذه النقول تبرز لنا أمرين:

الأول: أن الإعداد يدور حول معاني التهيؤ والأهبة والإرصاد.

الثاني: أنه هذا التهيؤ يعطينا دلالة على تغير في بنية الشيء ينقله من حالة إلى أخرى يكون فيها أكثر قابلية للتعامل مع ما يقابله.

ثانيا: مفهوم الفكر:

جاء في مقاييس اللغة: (فكر) الفاء والكاف والراء: تردد القلب في الشيء. يقال تفكر إذا ردد قلبه معتبرا. ورجل فكير: كثير الفكر. [4]

وجاء في لسان العرب: الفكر: إعمال الخاطر في الشيء، والفكرة: كالفكر، وقد فكر في الشيء وأفكر فيه وتفكر بمعنى. [5]

---

[1] ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (1399هـ - 1979م) (29/4)

[2] ابن منظور محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، لسان العرب، ط3، بيروت، دار صادر، (1414هـ) (284/3)

[3] المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين، التوقيف على مهمات التعريف، ط1، القاهرة، عالم الكتب (1410هـ-1990م) ص56

[4] ابن فارس، مقاييس اللغة، (64/4)

[5] ابن منظور، لسان العرب، (65/5)

تبرز لنا هذه النقول عدة أمور:

الأول: أن معنى الفكر لغة يدور حول عمل العقل.

الثاني: أن هذا العمل يدور في مجال يتردد فيه.

الثالث: أن هذا العمل حركة إنسانية لكنها حركة بالخاطر أو القوة العاقلة.

الفكر اصطلاحًا:

عُرِّفَ الفكر بالعديد من التعريفات لكن يلاحظ أن بعض هذه التعريفات يغلب عليها النظرة العامة لاستخدام هذه الكلمة أي قبل أن تضحي مفردة خاصة من مفردات بعض العلوم، ومن هذه التعريفات تعريفه بأنه فرك الأمور وبحثها طلبًا للوصول إلى حقيقتها. [1]

والبعض الآخر يرصد معنى الكلمة بعد أن أضحت جزءا من مفاهيم بعض العلوم خاصة العلوم العقلية، ومن هذه التعريفات تعريفه بأنه: حركة النفس في المعقولات. [2]

أو ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول نظري تصوري أو تصديقي. [3]

وقيل هو: الانتقال من المطالب إلى المبادئ، ورجوعها من المبادئ إلى المطالب. [4]

إن هذه التعريفات تضع أيدينا على معالم رئيسة يعكسها لنا مفهوم الفكر، وهي ما يلي:

1. أن الفكر خاصة من خواص الإنسان.
2. أنه ليس حركة عشوائية تقوم بها القوة العاقلة.
3. أنه السبيل إلى استكشاف المجهول سواء في المفاهيم أم في الحجج.

بعد هذا الاستعراض لمفهومي الإعداد والفكر يمكن أن نصوغ تعريفا للإعداد الفكري وهو أنه: **تهيئة القوة العاقلة لتقوم بوظيفتها في استكشاف المجهول وترتيب المعارف والتوصل إلى النتائج.**

---

[1] الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط1، دمشق، دار القلم، (1412هـ) صـ643

[2] التهانوي، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر، كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، ط1، بيروت، (1996م) (1286/2)

[3] الأحمد، عبد النبي، دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، ط1، لبنان، دار الكتب العلمية (1421هـ - 2000م) (31/3)

[4] الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش، بيروت، مؤسسة الرسالة، صـ67

المبحث الأول: أهمية الإعداد الفكري للدعاة إلى الله

المطلب الأول: تلبية الحاجة الإنسانية إلى التفكير

تأتي الحاجة الإنسانية إلى التفكير لتمثل مظهرا مدللا على محورية الإعداد الفكري للدعاة إلى الله تعالى، فالمتأمل للخلقة الإنسانية يدرك اتساع حاجات الإنسان التي ينطلق في هذه الحياة رغبة في تحقيقها، فهذه الحاجات لا تنحصر في إطار بيولوجي فحسب، بل تمتد إلى آفاق روحية وعقلية، وذلك راجع لطبيعة خلقته ومكوناتها التي تتخطى الجانب الجسدي.

ويأتي إعمال العقل أو ما يمكن أن نطلق عليه التفكير ليشكل إحدى أهم الحاجات الإنسانية التي لا يتحقق الوجود الإنساني إلا بها، ولعل هذا ما جعل المناطقة يجعلون هذا التفكير هو الفصل المقوّم للماهية الإنسانية.

وحين كان المنهج الإسلامي قد فصل القول في طبيعة الإنسان وأبان كافة خصائصه فإنه قرر تلك الحاجة الإنسانية ـ أعني الحاجة إلى التفكير ـ من خلال العديد من الدلائل، ومنا ما يلي:

أولا: بيان المنهج الإسلامي أن العقل هو الميزة العظمى التي ميزالله بها الإنسان

لذلك وجدنا الكثير من النصوص القرآنية والنبوية التي تبين عظم هذه المزية كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (الأعراف، 179)

قال الرازي: "تقريره أن الإنسان وسائر الحيوانات متشاركة في قوى الطبيعة الغاذية والنامية والمولدة، ومتشاركة أيضا في منافع الحواس الخمس الباطنة والظاهرة وفي أحوال التخيل والتفكر والتذكر، وإنما حصل الامتياز بين الإنسان وبين سائر الحيوانات في القوة العقلية والفكرية التي تهديه إلى معرفة الحق لذاته، والخير لأجل العمل به: فلما أعرض الكفار عن اعتبار أحوال العقل والفكر ومعرفة الحق والعمل بالخير كانوا كالأنعام."[1]

[1] تفسير الرازي، 408/15

ثانيا: الامتنان بمنافذ المعرفة وقنوات التفكير

لم تنحصر توجيهات المنهج الإسلامي في تقريره ميزة العقل الكبرى بل إنه كشف عن المنافذ التي تغذي هذا المكون الإنساني من الحواس، فنحد في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾ [النمل: 78]

قال المفسرون: "وجعل لكم السمع لتسمعوا مواعظ الله، والأبصار لتبصروا دلائل الله، والأفئدة لتعقلوا عظمة الله." [1]

ثالثا: ومن دلائل كون التفكير حاجة إنسانية أن المنهج القرآني في ذكره للدلائل لم يقصرها على فئة بعينها، بل جعلها في إطار إنساني عام مع مراعاة التفاوت الطبيعي في بنية العقول وقدرات التفكير.

يقول البقاعي: " عقول الناس متفاوتة، فجعل سبحانه وتعالى العالَم .وهو الممكنات الموجودة وهي جملة ما سواه الدالة على وجوده وفعله بالاختيار .على قسمين:

قسم من شأنه أن يُدرَك بالحواس الظاهرة، ويُسَمَّى في عرف أهل الشرع: الشهادة والخَلْق والمُلك. وقسم لا يُدرك بالحواس الظاهرة، ويُسَمَّى الغيب والأمر والملكوت، والأول يدركه عامة الناس، والثاني يدركه أولو الألباب الذين عقولهم خالصة عن الوهم والوساوس." [2].

رابعا: إقرار المنهج النبوي لمبدأ المراجعة من أجل الفهم

لقد أقر المنهج النبوي مبدأ معرفيا عظيما كان علامة فارقة في التاريخ الحضاري الإسلامي وهو حق من لا يفهم أن يراجع حتى يفهم، ومما يؤصل لذلك ما جاء عن ابن أبي مليكة، أن عائشة، زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه، إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: «من حوسب عذب» قالت عائشة: فقلت أوليس يقول الله تعالى: {فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً}(سورة الانشقاق آية 8) قالت: فقال: " إنما ذلك العرض، ولكن: من نوقش الحساب يهلك."[3]

---

[1] الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، التفسير الكبير، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (1420هـ) (251/20)

[2] البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، (300/2)

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من سمع شيئا فلم يفهمه فراجع فيه حتى يعرفه، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ (32/1)

ولقد كشف العلماء عن وجه الإشكال الذي علق بذهن السيدة عائشة ﷺ فذكروا أن وجه المعارضة هو أن لفظ الحديث عام في تعذيب كل من حوسب ولفظ الآية دال على أن بعضهم لا يعذب، وطريق الجمع أن المراد بالحساب في الآية العرض وهو إبراز الأعمال وإظهارها فيعرف صاحبها بذنوبه ثم يتجاوز عنه.[1]

وذكر العيني أن في هذا الحديث دلالتين هامتين إحداهما تتعلق بالسيدة عائشة وهي فضلها وحرصها على التعلم والتحقيق، والثانية تتعلق بالمنهج النبوي وإقراره لمسلك السيدة عائشة في رغبتها المتقدة في المراجعة العلمية وإزالة الإشكال الذي يعلق بالذهن.[2]

ومن دلائل صحة ما استنبطه العيني استمرار السيدة عائشة ﷺ في نفس المسلك الرشيد بعد وفاة النبي ﷺ ومراجعتها للصحابة فيما يروون عن النبي ﷺ حتى جمع الزركشي في ذلك كتابا أسماه "الإجابة لما استدركت عائشة على الصحابة.[3]

خامسا: استثارة النبي ﷺ العقول نحو التفكير

لقد امتلأت السنة النبوية بالعديد من التطبيقات النبوية التي كان يستثير فيها النبي ﷺ عقول من حوله ويدفعها نحو مزيد من التفكير. ولم تكن هذه التوجيهات قاصرة على كبار أصحابه كأبي بكر وعمر وغيرهما بل رأيناها توجيهات عامة كما جاء عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، حدثوني ما هي» قال: فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله: فوقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله، قال: «هي النخلة»[4]

واستنبط البخاري بعقليته الثاقبة ترجمة لهذا الحديث تضاف إلى تراجمه التي تؤسس لمنهج معرفي متكامل فقال: باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم.[5]

---

[1] ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل، فتح الباري، بيروت، دار المعرفة، 1379هـ (402/11)

[2] ينظر: العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (238/2)

[3] الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، الإجابة لما استدركت عائشة على الصحابة، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1(1421 هـ - 2001 م)

[4] أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم (22/1) رقم 62

[5] االبخاري، كتاب العلم، (22/1) رقم 62

إن هذا المنهج النبوي يهدم التقليد الذي هو علة من علل الجمود باعتباره خللا منهجيا في طريقة التفكير.[1]

وإذا نظرنا إلى التاريخ الإسلامي سنجد فيه الكثير من الشواهد على انطلاق الدعاة إلى الله في تكوينهم الفكري من تلبية هذه الحاجة إلى التفكير، ويمكن أن نأخذ مثالا على ذلك من حياة واحد من أعظم دعاة الأمة على مدار تاريخها وهو ابن الجوزي الذي وصفه الذهبي بقوله: " كان رأسا في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديها، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء الوعظ، والقيِّم بفنونه."[2]

إن ابن الجوزي انطلق من رغبة عارمة في المعرفة غرستها فيه بيئة اجتماعية متشربة بالمنهج المعرفي الإسلامي حتى ذكر أنه كتب بيده ألفي مجلدة، وذكر الذهبي أنه وجد بخطه قبل موته أن تواليفه بلغت مائتين وخمسين تأليفا.[3]

وإذا كان الإسلام قد قرر أن التفكير حاجة إنسانية فإن السبيل لتلبية هذه الحاجة وإشباعها إشباعا رشيدا يكون عن طريق دعاة مؤهلين تأسسوا تأسيسا فكريا رصينا منطلقا من أسس منهجية؛ لذا فلا يمكن قراءة ارتفاع مستوى التفكير الذي كانت عليه المجتمعات الإسلامية إبان ازدهار الحضارة الإسلامية بمعزل عن القوة الفكرية التي كان عليها الدعاة إلى الله تعالى، من هنا فإن تلبية هذه الحاجة الإنسانية أعني التفكير يحتم ضرورة التأسيس الفكري لدعاة اليوم.

المطلب الثاني: التمكن من تفنيد الشبهات

إن المسيرة الدعوية للأنبياء والمرسلين ـ والتي فصل القرآن صورها ـ تبرهن على أن هناك جهدا دعويا عظيما في تبليغ الرسالات الإلهية وإقامة كافة الأدلة على ربانيتها، وإننا لنجد حيزا كبيرا من هذه المسيرة يرتكز في التعامل مع الشبهات التي يثيرها أقوامهم.

ويعطينا تسجيل القرآن لهذه الشبهات والرد العلمي المنهجي عليها إشارة عظيمة على محورية القدرة على هذا الرد في التأسيس الفكري لمن يتولى إكمال مسيرة الأنبياء والرسل الدعوية.

---

[1] محمد عبده، الإسلام والمدنية، ص 132، مصر، دار كلمات عربية.

[2] الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، (1405هـ/ 1985م) ، 370/21

[3] المرجع نفسه370/21

إننا يمكننا القول بأن القدرة على التعاطي مع الشبهات وتفنيد ما يُزعم بأنه براهين وحجج يعد من الميراث المعرفي الذي تركه الأنبياء والرسل كما في حديث: إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر.[1]

وهذا التعامل مع الشبهات إحدى المعالم الرئيسة للدعوة إلى الله تعالى مع تصحيح العقائد واستقامة الاعمال وتهذيب النفوس.[2]، وهو كذلك سبيل من سبل حمايتها.[3]

ومن نظر في المعاني البنيوية للشبهة يدرك خطورتها وتهديدها للبناء المعرفي السليم فقد جاء أن " الشبهة الالتباس و (فِي الشَّرْع) مَا الْتبس أمره فَلَا يُدرى أحلال هُوَ أم حرَام وَحقّ هُوَ أم بَاطِل.[4]

وبين المناوي خطورة الشبهات، وذكر أنها تمثل أحد نوعي الفتنة وأخطرهما وأنها تنبع من بصيرة ضعيفة وعلم ضئيل خاصة إذا اقترن بهما نوع من الهوى ومن مظاهر هذه الفتنة الابتداع في الدين لأن المبتدع يشتبه عليه الحق بالباطل.[5]

وحين كان للشبهة كل هذه الخطورة فإنها تتطلب بنية فكرية قوية للتعاطي معها، لذا ذكر العلماء أن السبيل للتصدي للشبهات هو فهم الوحي الإلهي وتدبره والتضلع بما فيه من البراهين والحجج.[6]

وإذا كان من أوصاف الهدي القرآني أنه نور فإن من بين معاني هذا النور أنه السبيل لإزالة الشبهات.

---

[1] أخرجه ابن ماجه في سننه، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، (81/1) رقم 223، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.

[2] ينظر: هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، علي محفوظ، ط9، دار الاعتصام، (1399هـ.1979م)، ص16

[3] ينظر: الدعوة الإسلامية منهجها ومعالمها، أحمد عمر هاشم، مكتبة غريب، ص27

[4] الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، بيروت، دار العلم للملايين، ط4(140هـ - 1987م) (2226/6)

[5] المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ط1، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، (1356هـ) (377/2)

[6] ينظر: ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: محمد عزير شمس، ط1، مكة المكرمة، دار عالم الفوائد، (1432هـ)

(44/1) وينظر: عبد الملك بن محمد القاسم، الدعوة إلى الله فوائد وشواهد، ص58

" وَالْعرب تسمي كل مَا جلى الشُّبُهَات وأزال الالتباس وأوضح الْحق نورا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ يَعْنِي الْقُرْآن وعَلى هَذَا الْمَعْنى سمى نبيه ﷺ: ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[1]

إن السبيل الأعظم في التعامل مع الشبهات من قبل الدعاة هو توسيع أفقهم الفكري من خلال الاضطلاع بعلوم الشريعة، لذا استنبط الرازي وجوب تعلم علم الأصول للتمكن من الرد على الشبهات وذلك أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [طه: 16] [2]

وقد بين الغزالي أن التعاطي مع الشبهات والاسترسال معها دون تأسيس فكري من أعظم الأدواء التي يقع فيها المتعالمون حيث يخوضون في دقائق العلم بغرور يمنعهم من سؤآل أهل العلم وتحصيل ما يلزم تحصيله.[3]

إن المتعالم إذا نظر إلى الشبهات فإنها تسوقه إلى الجهل بخلاف العالم بحقائقها فإنه إذا نظر فيها لم تسقه إلى الجهل، وإذا نظر في الدليل قاده إلى العلم بالمدلول.[4]

وحين أوضح الهدي النبوي المهمات الكبرى لأرباب العلم لم يغب التعامل مع الشبهات عن تلك المهمات، فعن أبي الدرداء ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: " يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين "[5] والناظر إلى الواقع الفكري للأمة يدرك حجم الشبهات المثارة حول الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا خاصة تلك الشبهات التي تأتي ممن تأثر بالفلسفات التي التي تحصر المعرفة في مصدر أحادي.[6]

---

[1] الجويني، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، التلخيص في أصول الفقه، تحقيق: عبد الله جولم النبالي، بشير أحمد العمري، بيروت، دار البشائر الإسلامية.(128/1)

[2] ينظر: تفسير الرازي (23/22)

[3] المناوي، فيض القدير (354/2)

[4] ينظر: الجويني، التلخيص في أصول الفقه (128/1) (مرجع سابق)

[5] القحطاني، أبو محمد صالح بن محمد بن حسن، مجموعة الفوائد الهية على منظومة القواعد الفقهية، تحقيق: متعب بن مسعود الجعيد، ط1، السعودية، دار الصميعي، (1420هـ - 2000 م)، صـ31

[6] بنظر: سليمان دنيا، التفكير الفلسفي الإسلامي، ط1، مكتبة الخانجي، مصر، (1387هـ.1967م) صـ8

إن هناك حاجة ملحة لداعية لديه قدرة عقلية وبيانية للتعامل مع تلك الشبهات حتى لا تكون حاجزًا بين المدعويين ورؤية براهين هذا الدين، مما يعطينا حقيقة تتمثل في أن الحاجة إلى تفنيد الشبهات دليل من أدلة محورية البناء الفكري للدعاة إلى الله تعالى.

المطلب الثالث: القدرة على التعاطي مع المستجدات المعرفية

حين كان الإسلام رسالة عالمية في إطاريها الزماني والمكاني كان من الطبيعي أن تستوعب منهجيته المعرفية كل المستجدات الإنسانية، فقد دخلت الإسلام أمم ومجتمعات لها ميراثها الحضاري المتشعب وتراثها الثقافي المتراكم مما مثل تحديا فكريا أمام رواد الفكر الإسلامي لكنهم استطاعوا التعامل مع هذا التحدي انطلاقًا من متانة المنهج المعرفي الإسلامي الذي وجدوا فيه قواعد راسخة تؤسس لانفتاح ثقافي وحضاري منضبط.

إن هذا الفكر قد شهد توسعا عظيما استطاع من خلاله أن يستوعب ما يستجد من أفكار وما ينشأ من مذاهب وما يطرأ من رؤى، ولنا في علم الفقه الإسلامي الأنموذج الواضح فحين أتى الإسلام لم يكن لدى العرب فقه سماوي ولا وضعي فأنار لها السبيل بفقه ينطلق من الوحي الإلهي.[1]

وحين جدت أمور لم يعرفها عهد النبي ﷺ أبدى الفقهاء لها أحكاما متخذين من الاستنباط سبيلا لذلك، وحين اتسع نطاق انتشار الإسلام ودخلت الكثير من الشعوب فيه وانطلق عهد التمدن الإسلامي صار الفقه تبعا لذلك وبهذا ابتدأ التوسع في الاستنباط والتفريع.[2]

ولا شك أن المستجدات المعرفية قد اتسع نطاقها مع مجيء العصر الحديث وازدياد النشاط الإنساني وتشعب صوره وأنماطه، ولا بد تجاه هذا الاتساع في كم وكيف المستجدات المعرفية من منهجية فكرية رصينة تستطيع أن تتعاطى مع تلك المستجدات انطلاقا جامعا بين الاستهداء بأنوار الوحي الإلهي ومراعاة الواقع الإنساني.

---

[1] الحجوي، محمد بن الحسن بن العربيّ بن محمد، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، (1416هـ- 1995م) (67/1)

[2] المرجع نفسه، (320/1)

وقد كشف الباحثون في أمر الدعوة أن تغير الإطار الزماني خاصة مع بدايات القرن العشرين وإلى يومنا هذا يفرض مواصفات خاصة لمن يقوم بمهمة الدعوة إلى الله. [1]؛ لذا فإن الداعية في حاجة إلى تحصيل مفردات عدة من مفردات الذكاء النظري والعملي والاجتماعي. [2]

إن التعامل مع المستجدات يعد دليلا من أدلة ضرورة الاجتهاد لأننا حين نرقب حركة الاجتهاد في التاريخ الفكري الإسلامي نجد أنه كان يسير وفق التغير الطارئ في الإطارين الزماني والمكاني للأمة الإسلامية مما يجعله يمثل السبيل الذي أصله الإسلام للتعاطي مع ما يطرأ على الحياة الإسلامية على اختلاف أنماطها وتعدد مجالاتها.

ولمكانة القدرة الفكرية في التعامل مع المستجدات كانت إحدى مفردات التكوين الفكري اللازم لمن يتصدر لمهمة الفتوى والنصح الديني كما ذكر الفضل بن محمد الشعراني أن من يتصدر لذلك ينبغي أن يكون: قوي الاستنباط قوي الملاحظة، رصين الفكر، صحيح الاعتبار. [3]

المطلب الرابع: تقويم منهجية التفكيرلدى المدعوين

حين نتدبر أنماط الهداية التي يتغياها الإسلام نجد الهداية الفكرية إحدى أعظم هذه الأنماط، ولا شك أن من أسس الهداية الفكرية تلك التي تقوّم منهجية التفكير، وذلك لما للفكر من محورية في الصورة المعرفية العامة للإنسان.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإيرادات، والإيرادات تقتضي وقوع الفعل وكثرة تكراره تعطي العدة، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها. [4]

---

[1] ينظر: عبد الله شحاته، الدعوة الإسلامية والإعلام الديني، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م، ص14، وينظر أيضا: محمود حمدي زقزوق، الإسلام في الفكر الغربي، ط3، دار القلم، الكويت، (1406هـ.1986م)، ص10

[2] ينظر: الخطابة، جامعة المدينة العالمية، ص111

[3] الخطيب، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، الفقيه والمتفقه، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، ط2، السعودية، دار ابن الجوزي، السعودية، (1421ه) (333/2)

[4] ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب، الفوائد، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، (1393هـ - 1973م) ص173

إن قصص الأنبياء والمرسلين باعتبارها المصدر الأعظم للمنهج الدعوي تدلل على أن تقويم منهجية التفكير لدى المدعويين كان إحدى أبرز معالم دعوتهم، فقوم لوط عليه السلام حين اختلت طريقة تفكيرهم كانت العلة في منهجية التفكير ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (النمل، 55)

قال أبو حيان: تجهلون، أي عاقبة ما أنتم عليه، أو تفعلون فعل السفهاء المجان، أو فعل من جهل أنها معصية عظيمة مع العلم.[1]

وإذا جئنا إلى التطبيقات النبوية سنجد أن هناك الكثير من المواقف التي قوَّم فيها النبي ﷺ منهجية التفكير لدى بعض أصحابه، ولو أردنا أمثلة عملية فيمكن أن نورد ما يلي:

الموقف الأول: عن أنس، أن رسول الله ﷺ، عاد رجلا من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجلْه لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: " سبحان الله لا تطيقه - أو لا تستطيعه- أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار " قال: فدعا الله له، فشفاه.[2]

لقد عالج النبي ﷺ هنا منهجية التفكير التي كانت قاصرة في رؤيتها للعقاب الإلهي، وارتأت أن تعجيل العقوبة هو السبيل الأوحد للخلاص منه وغفلت عن حقيقة الطاقة الإنسانية أمام العقاب الإلهي.

الموقف الثاني: عن عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، أن حكيم بن حزام ﷺ، قال: سألت رسول الله ﷺ، فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني ثم قال: «يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى»، قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا.[3]

---

[1] البغدادي، الفقيه والمتفقه، 333/2

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا (2068/4) رقم 2688

[3] أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، (132/2) رقم1473

لقد عالج النبي ﷺ هنا أيضًا منهجية التفكير لدى حكيم ﷺ ورؤيته لوظيفة المال في الحياة، وبيَّن له أن الحب الغريزي للمال ليس هو الركن الوحيد في التعامل مع المال.

إن هذه المعالجة النبوية توجه الدعاة إلى الله لمعرفة طبيعة من يدعونهم وكون ذلك من مقومات الداعية الناجح في مسيرته.[1]

ويعطينا ابن الجوزي باعتباره رائدًا من رواد الخطاب الدعوي، ومن أبرز من أصَّل للوعظ الديني نماذج حياتية لبعض من لقيهم في مشواره الدعوي، وقد اختلت منهجية التفكير لديهم بسبب عدم إعمال الملكة العقلية كما ينبغي فيقول: " وإني رأيت كثيرًا من الناس لا يعملون على دليل، بل كيف اتفق، وربما كان دليلهم العادات! وهذا أقبح شيء يكون.

رأيت خلقًا كثيرًا لا يتبعون الدليل بطريق إثباته، ومن هذا القبيل في المعنى قوم يتعبدون ويتزهدون، وينصبون أبدانهم في العمل بأحاديث باطلة، ولا يسألون عنها من يعلم!

ومن الناس من يثبت الدليل، ولا يفهم المقصود الذي دل عليه الدليل، ومن هذا الجنس قوم سمعوا ذم الدنيا، فتزهدوا، وما فهموا المقصود، فظنوا أن الدنيا تذم لذاتها، وأن النفس تجب عداوتها، فحملوا على أنفسهم فوق ما يطاق.[2]

وحين نتتبع أسباب الإعراض التي سجلها القرآن الكريم نجد أن منها فساد القوة النظرية والتي عبر عنها القرآن بالنفور في قوله تعالى: ﴿ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (الملك21)[3]

إن فساد القوة النظرية واختلالها عند بعض المدعويين يشير إلى ضرورة التمكن الفكري لدى الدعاة إلى الله تعالى ليستطيعوا السير على منهاج الأنبياء والمرسلين في إصلاح الفكر السقيم وتقويم العقل الذي تنكب سبيل الرشاد.

إن على الدعاة إلى الله تعالى أن يكونوا على وعي بطبيعة الفساد الفكري الذي يرومون إصلاحه لأن هذا الفساد متشعب العلل والمظاهر، وقد بيَّن الأصفهاني أن الإنسان بالنسبة للجهل على منازل:

الأول: من كان خاليا من الاعتقاد، وهذا يسهل إرشاده ما دام أن له طبعا سليما.

---

[1] القحطاني، سعيد بن علي بن وهب، مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1(1415هـ.1994)، صـ106

[2] ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، صيد الخاطر، تحقيق: حسن المساحي سويدان، ط5، دمشق، دار القلم (1425هـ - 2004م) صـ225

[3] تفسير الرازي، (594/30)

الثاني: من كان معتقدا اعتقادا فاسدا لكنه لم يتمكن منه، وهذا إرشاده أصعب من الأول لكنه ممكن.

الثالث: من كان معتقدا لاعتقاد فاسد قد تمكن منه حتى ختم على قلبه وهذا من الأدواء التي لا دواء لها.[1]

إننا حين نرقب اختلاف أنماط الجهل التي قد تعتري الفكر الإنساني ندرك عدة أمور:

الأمر الأول: أن المآسي التي عانت منها الإنسانية إنما خرجت من أطر فكرية معوجة تضخمت في بعض مراحل التاريخ حتى أضحت مذاهب وفلسفات فصبغت التاريخ الإنساني في بعض فتراته بصبغة تخالف الرسالة التي خلق الله الإنسان لها والطبيعة التي أوجده الله عليها، لذا لا يمكن النظر إلى تلك المآسي على أنها مجرد تصرفات بشرية عفوية بل هي مظاهر تدلل على عظم الأثر المترتب على فساد الفكر.

الأمر الثاني: ندرك مدى الجهد الذي قام به الأنبياء والمرسلون في التعامل مع هذه الأنماط الفكرية المعوجة واختيارهم منهجية ملائمة لكل نمط من تقرير للدلائل وإقامة للحجج ودعوة للتدبر الشامل في موضوعه والتي سجل القرآن الكريم الكثير من ملامحها.

الأمر الثالث: ندرك أن هناك حاجة ملحة لتأسيس فكري للدعاة إلى الله تعالى حتى يتمكنوا من مواصلة سبيل الأنبياء والمرسلين.

المبحث الثاني: آليات الإعداد الفكري للدعاة إلى الله تعالى

المطلب الأول: استيعاب المفاهيم المعرفية التي أصلها الوحي الإلهي

تعد المفاهيم أساسا لا غنى عنه من أسس البناء الفكري، ذلك لأنها تعطينا خلاصة للمضامين المعرفية التي تمثلها الأفكار، وحين ننظر إلى القرآن الكريم نجد أنه قد أحدث نقلة عظيمة في بنية المفاهيم التي كانت سائدة قبله، وأصبحت هذه المفاهيم جزءا لا يتجزأ من هدايته العامة، وتأتي المفاهيم الفكرية لتمثل أنموذجا متكاملا لتلك النقلة التي أحدثها الوحي الإلهي؛ لذا فإن من أسس البناء الفكري وآلياته استيعاب العقل المسلم عامة والدعاة إلى الله تعالى خاصة لهذه المفاهيم.

---

[1] ينظر: الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق: أبو اليزيد العجمي، القاهرة، دار السلام، (1428هـ - 2007م)، ص165

إن استيعاب المفاهيم الفكرية التي أتى بها الوحي الإلهي يشكل لدى الدعاة إلى الله مخزونا مفاهيميا مؤصلا يستطيعوا من خلاله تحقيق عدة أمور منها ما يلي:

أ ـ القدرة على رصد الخلل المفاهيمي الذي يحدث في البيئة الدعوية، هذا الخلل الذي يتم بسببه انحسار المفاهيم الفكرية التي أتى بها الإسلام فتفقد بذلك قوتها الدافعة نحو البناء الحضاري وفعاليتها الذاتية في تكوين منهجية معرفية رصينة للأمة.

ب ـ بيان أنه لا وجود لمنحى تعارضي بين الدين والعقل في التصور الإسلامي، وأن الإسلام لم يكتف فحسب ببيان أهمية العقل وحثه على التفكير، بل إنه صاغ له العديد من الآليات الفكرية التي يثمر من خلالها بناء معرفيا مستوعبا لحركة الوجود الإنساني في الآفاق.

ج ـ التدليل على عمق البناء الفكري في الإسلام وجدارته لأن ينشئ كافة الأنماط المعرفية للأمة.

ورأينا المنهج القرآني يؤسس لمفهوم آخر أخص من مفهوم العقل وهو مفهوم اللب حيث عُرِّف بأنه ما ذكا من العقل فكل لب عقل، وليس كل عقل لبا، ولهذا خص الله الأحكام التى لا تدركها إلا العقول الذكية بأولي الألباب؛ نحو قوله: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ (البقرة، 269) ونحو ذلك من الآيات.[1]

ويأتي استعمال القرآن لمفهوم التفكر إيذانا بكونه مفهوما إنسانيا يعكس حقيقة التكريم الإلهي لهذا المخلوق حتى قال الأصفهاني: الفكرة: قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر: جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان.[2]

ومن هذه المفاهيم الفكرية التي أصلها الوحي الإلهي مفهوم النظر حيث وسَّع القرآن من استعماله ولم يحصره على النظر بالبصر فحسب بل استعمله كذلك في التأمل والنظر بالبصيرة.[3]

---

[1] الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، (1416هـ - 1996م) (414/4)

[2] المفردات في غريب القرآن، ص643

[3] الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة ، ص813

ومنها كذلك مفهوم التدبر، وقد عرف بأنه التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة.[1]

وحين كانت الفروق المعرفية إحدى آليات المنهج الإسلامي فإن هذه الفروق لم تكن بعيدة عن ميدان المفاهيم الفكرية حيث قام العلماء بجهد عظيم في التفرقة بين الكثير من هذا المفاهيم حتى يضعوا العقلية الإسلامية أمام بنية معرفية واضحة لا لبس فيها.

ومن هذه الفروق التي بينوها مثلا الفرق بين العلم والمعرفة، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

1 ـ أن المعرفة تختص بما يدرك أثره وإن لم يدرك العقل ذاته بخلاف العلم فيكاد يختص بما يدرك ذاتا.

2 ـ تختص المعرفة بما لا يعرف سوى بكونه موجودا فحسب أما العلم فيقال لما يعلم وجودا وجنسا وكيفية وعلة.

3 ـ تطلق المعرفة على ما يتحصل بالتدبر والفكر، بخلاف العلم فهو أعم.[2]

إن استيعاب هذه المفاهيم الفكرية ومضامينها المعرفية آلية عظيمة في تكوين الإطار الفكري؛ لذا رأينا إفراد هذه المفاهيم بالتأليف أخذ حيزا في خارطة التراث الإسلامي، ورأينا مصنفات عدة تؤصل للمضامين المعرفية التي احتوتها تأسيسا للعقلية الإسلامية، ومن هذه المؤلفات: "ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه" للحارث المحاسبي والذي ابتدأه بقوله: سألت عن العقل ما هو؟ وإني أرجع إليك في اللغة والمعقول من الكتاب والسنة.[3]

ومنها كتاب "العقل والهوى" للحكيم الترمذي والذي كشف فيه عن كثير من المفاهيم الفكرية كالعقل والفهم والبصر وغيرها. وكذلك كتاب "العقل وفضله" لابن أبي الدنيا والذي أورد فيه الكثير من الآثار حول العقل ومكانته وجوهريته في الحياة الإنسانية.

ويأتي كتاب "أدب الدنيا والدين" للماوردي ليكون من أبرز المؤلفات الإسلامية التي تناولت قضية العقل، وكذلك كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر لأبي إسحق برهان الدين

---

[1] الميداني، عبد الرحمن حبنكة، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، دار القلم، ط1(1400هـ.1980م)، صـ4

[2] ينظر: الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، صـ141

[3] المحاسبي، الحارث بن أسد، ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه، تحقيق: حسين القوتلي، ط2، بيروت، دار الفكر (1398هـ)، صـ201

محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف بالوطواط والذي تحدث فيه عن خواص الإنسان والحيوان وكيف أن العقل هو الميزة العظمى للإنسان.

إن هذه مجرد نماذج من عشرات المؤلفات التي تحدثت عن مضامين المفاهيم الفكرية والتي يعد إدراكها ضرورة من ضروريات البناء الفكري للدعاة إلى الله تعالى.

المطلب الثاني: إدراك مهام العقل ووظائفه

لا شك أن معرفة إمكانات العقل والوعي بقدراته ووظائفه يمثل أساسا من أسس انطلاقته الفكرية، وكم من طاقات عقلية قد تعطلت تحت إسار تهميش دور العقل سواء أكان ذلك بموروث ديني باطل أو نزعة فكرية ذات نظرة مبتورة.

والناظر إلى ثنايا الوحي الإلهي يدرك إلى أي مدى يؤصل الإسلام لدور العقل واتساع نطاق عمله وتشعب المجالات التي يمكن أن يبدع فيها حتى يكون أمام كل مطالع لهذا الدين الخاتم خارطة معرفية للطاقة العقلية الإنسانية، لذا رأينا تعدد المجالات التي تنطلق فيها القوة التدبرية للإنسان ما بين الآيات الإنسانية والكونية والحياتية.

إن العقل يستطيع أن يقوم بأعمال فكرية كثيرة منها الأعمال التالية:

1. أن يستنبط من الكليات جزئياتها، ويدرك الكليات من خلال النظر في الجزئيات، ويعمم الأحكام عن طريق الاستقراء او قوانينه الخاصة به.
2. أن يقيس النظائر والأشباه بعضها على بعض.
3. أن يستنبط ما يقابل المعاني وما يعد عكسا لها.
4. أن يجري تحليلا وتركيبا وجمعا وتفريقا فيما عنده من المدركات.
5. أن يدرك النسب بين المعاني.
6. أن يدرك الروابط بين كل معلول وعلته وكل مسبب وسببه.[1]

إن تفعيل هذه الوظائف العقلية هو السبيل لتحقيق البناء الفكري الرصين الذي يضع كل مفردة معرفية موضعها، وحين تتعطل أي من هذه الوظائف العقلية أو تختل ينتج ذلك فكرا مشوشا.

[1] ينظر: الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، ط4، دمشق، دار القلم، (1414هـ-1993م) صـ132

وحين ننظر إلى منظومة البناء الفكري التي كان المنهج النبوي حريصا على تأسيسها نجد أن إثارة هذه الوظائف العقلية كان إحدى مفرداتها، ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس ﷺ، أن امرأة من جهينة، جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: «نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضية؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء»[1]

قال المهلب: "النبي ﷺ قد علَّم أمته كيفية القياس والاستنباط في مسائل لها أصول ومعان في كتاب الله عز وجل ليريهم كيف يصنعون فيما عدموا فيه النصوص."[2]

وكان الصحابة رضي الله عنهم باعتبار أنهم أول من تأسس على المنهج النبوي يدركون هذه الوظائف العقلية ويقومون بتطبيقها، فقد سئل ابن مسعود عمن تزوج امرأة ولم يسم لها مهرا وقد مات عنها زوجها قبل الدخول فاستمهل شهرا ثم قال أجتهد فيه برأيي فان كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمن ابن أم عبد فقال أرى لها مهر مثل نسائها لا وكس فيها ولا شطط.[3]

وقد تبلورت مفاهيم شرعية تضمن توظيف هذه القدرات العقلية، ويأتي على رأس هذه المفاهيم مفهوم الاجتهاد والذي عُرِّف بأنه بذل المجهود في طلب الحق بقياس وغيره. ويدخل فيه حمل المطلق على المقيد، وترتيب العام على الخاص وأمثال ذلك.[4]

والناظر إلى حركة الاجتهاد التي نشطت في الأمة وأنتجت ميراثا معرفيا ضخما يجد أنها تمثل الانموذج الأعظم لتوظيف كامل الإمكانات العقلية التي اختص الله بها الإنسان حيث لم ينحصر هذا النشاط الاجتهادي في استثارة ملكة عقلية واحدة بل أعطانا نتاجه عشرات الصور لتوظيف شامل للملكات العقلية مما يبطل الفكرة الشائعة والتي مفادها أن الفكر الإسلامي كان رهينا للمنطق الأرسطي.[5]

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب جزاء الصيد، باب الحج والنذور عن الميت، والرجل يحج عن المرأة (18/3) رقم 1852

[2] العيني، عمدة القاري، (46/25)

[3] المرجع نفسه، (46/25)

[4] السمعاني، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد، قواطع الأدلة في الأصول، تحقيق: محمد حسن اسماعيل الشافعي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، (1418هـ/1999م) (71/2)

[5] ينظر: النشار، علي سامي، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، ط1، دار الفكر العربي، (1367هـ.1947م) صـ4

ولم يكن هذا التوظيف منبت الصلة عن نصوص الوحي الإلهي بل كان معتمدا عليها دائرا في فلكها ؛لذا فقد اشترط العلماء فيمن يتولى مهمة الاجتهاد العلم بالأمرين معا أعني نصوص الوحي الإلهي وأحكام العقول ودلالتها.[1]

إن الدعاة إلى الله هم من أولى الناس بتوظيف كافة ملكاتهم العقلية لأنهم يواجهون العديد من أنماطا التفكير ومنهجيات المعرفة[2] وصور الحجج التي تتطلب منهم أن يسلكوا مسلك الاجتهاد الذي يجمعون من خلاله بين أصول الوحي الإلهي والقواعد العقلية فيستطيعوا بيان الأحكام الشرعية بفهم واقعي.

المطلب الثالث: إدراك القواعد العقلية

حين كان العقل هو المزية العظمى التي اختص الله بها الإنسان فإن تلك الخاصية تظهر جليا في مجموعة من القواعد الكبرى التي يستطيع العقل من خلالها الانطلاق نحو آفاق المعرفة على اختلاف مصادرها.

إن إدراك هذه القواعد الكلية يدخل في المفهوم العام للعلم، فمن تعريفات العلم أنه: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً؛ كإدراك أن الكل أكبر من الجزء.[3]

وهي تعد جزءا لا يتجزأ من طريقة التفكير السليم مثل استحالة تأكيد الشيء ونقيضه في آن واحد، والمبدأ القائل أن لكل حادث سببا، وأن من المحال أن يحدث شيء من لا شيء.[4]

وحين نتتبع منهجية القرآن الكريم ندرك أن خطابه يستند إلى تلك القواعد العقلية التي تدركها العقول السليمة، ومن أمثلة ذلك نفيه لوقوع التناقض في ثنايا الذكر الحكيم، وذلك لأن التناقض في القول برهان على فساده حيث قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (النساء82)

---

[1] ينظر: الجصاص، أحمد بن علي أبو بكر، الفصول في الأصول، ط2، الكويت، وزارة الأوقاف الكويتية، (1414هـ - 1994م) (273/4)

[2] للاستزادة من الاطلاع على هذه الأنماط المعرفية للإنسان ينظر: عبد العزيز بن محمد النغيمشي، علم النفس الدعوي، دار المسلم 1415ط3 1432هـ. 2011م، صـ31

[3] ابن عثيمين، الأصول من علم الأصول، ابن عثيمين صـ15

[4] فؤاد زكريا، التفكير العلمي، سلسلة عالم المعرفة، (3) (1978م) صـ6

إن القرآن حين نفى التناقض عن أحكامه ومعانيه اقترن ذلك بدعوته إلى التدبر في ثناياه للتيقن بذلك، وهذا يدلنا على أن كثيرا من صور استعمال هذا المفهوم ـ أعني مفهوم التناقض ـ في الساحة الفكرية المعاصرة يأتي غير مستند إلى نظرة ثاقبة تتراءى من خلالها استيفاء شروط تحقق هذا المفهوم من عدمه مما ينتج أحكاما تنطلق من مجرد إطار عاطفي بعيدا عن التأسيس المعرفي.

من هنا وجدنا العلماء يبينون أن للتناقض شروطا لا يتحقق إلا من خلالها بحيث لو اختل شرط منها لا يحكم على الكلام بالتناقض وهي شروط ثمانية مفصلة في كتب المعقولات.[1]

ومن أمثلة هذه القواعد العقلية التي يختل البناء الفكري إذا لم تكن مستحضرة في الذهن معرفة أن الحكم العقلي ينقسم إلى ثلاثة أقسام هي الواجب والممكن والمستحيل، وعرفوا الممكن بأنه ما يقبل الثبوت والانتفاء جميعا، والواجب بأنه ما يقبل الثبوت فقط، وأما المستحيل فهو ما يقبل الانتفاء فقط.[2]

ومن هذه القواعد العقلية معرفة ما يمكن اجتماعه من المعلومات وما لا يمكن، وما يمكن ارتفاعه منها وما لا يمكن، وقد بين العلماء ذلك فذكروا أن المعلومات كلها أربعة أقسام؛ نقيضان، وهما اللذان لا يجتمعان ولا يرتفعان كوجود زيد وعدمه، وخلافان وهما اللذان يجتمعان ويرتفعان كالحركة واللون، وضدان وهما اللذان لا يجتمعان ويمكن ارتفاعهما مع الاختلاف في الحقيقة، كالسواد والبياض؛ ومثلان وهما اللذان لا يجتمعان ويمكن ارتفاعهما مع التساوي في الحقيقة كالبياض والبياض.[3]

---

[1] قال الغزالي: للتناقض شروط ثمانية، فإذا لم تراع الشروط لم يحصل التناقض: الأول أن تكون إحدى القضيتين سالبة والأخرى موجبة، الثاني: أن يكون موضوع المقدمتين واحدا فإذا تعدد لم يتناقضا. الثالث: أن يكون المحمول واحدا. الرابع: ألا يكون المحمول في جزئين مختلفين من الموضوع. الخامس: ألا يختلف ما إليه الإضافة في المضافات، السادس ألا يكون نسبة المحمول إلى الموضوع على جهتين مختلفتين، السابع: ألا يكون في زمانين مختلفين كقولنا الصبي له أسنان، ونعني به بعد الفطام، والصبي لا أسنان له ونعني به في أول الأمر. الثامن: وهذا في القضية التي موضوعها كلي على الخصوص، فإنه يزيد في التي موضوعها كلي أن يختلف القضيتان بالجزئية والكلية مع الاختلاف في السلب والإيجاب، حتى يلزم التناقض لا محالة، وإلا أمكن أن يصدقا جميعا، (الغزالي أبو حامد محمد بن محمد، معيار العلم في فن المنطق، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، (1961م)ص125

[2] ينظر: السنوسي، أبو عبد الله محمد بن يوسف، شرح المقدمات، تحقيق نزار حمادي، ط1، مكتبة المعارف، (1430 ـ 2009م) ص81

[3] القرافي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي، شرح تنقيح الفصول، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، ط1(1393 هـ - 1973م) ص98

ومنها كذلك معرفة ما يمكن به الاستدلال على غيره وما لا يمكن من المتقابلات وجودا وعدما حيث بين العلماء ما يلي:

1. يستدل بوجود المساوي على وجود مساويه وبعدمه على عدمه.
2. يستدل بوجود الأخص على وجود الأعم.
3. يستدل بنفي الأعم على نفي الأخص.
4. يستدل بوجود المباين على عدم وجود مباينه.
5. لا دلالة في الأعم على نفي الأخص.
6. لا دلالة بوجود المباين على عدم وجود مباينه.
7. لا دلالة في الأعم من وجه مطلقاً، ولا في عدم الأخص، ولا وجود الأعم.
8. لا دلالة في الأعم مطلقا، ولا في عدم الأخص، ولا في وجود الأعم.[1]

وحتى لا يظن أن هذه القواعد مجرد قواعد نظرية لا تطبيق لها في مجال العلم الشرعي فإن العلماء ذكروا لنا تطبيقات فقهية عليها، فالرجم وزنا المحصن متساويان يلزم من وجود كل واحد منهما وجود الآخر، والإسلام والجزية متباينان لا يجتمعان في محل واحد، والغسل والإنزال المعتبر بينهما عموم وخصوص مطلق فيوجد الأعم وهو الغسل مع وجود كل أفراد الأخص وهو الإنزال المعتبر من غير عكس، وحل النكاح مع ملك اليمين من باب العموم والخصوص الوجهي فيوجد كل واحد منهما مع الآخر وبدونه، فيوجد حل النكاح بدون ملك اليمين في الحرائر، ويوجد الملك بدون حل النكاح في موطوءات الآباء من الإماء، ويجتمعان معاً في الأمة التي ليس فيها مانع شرعي.[2]

إن إدراك القواعد العقلية يجنب صاحبه الفهم السقيم، وقد أعطانا العلماء الكثير من الأمثلة التي يختل فيها الفكر نتيجة تنكره لهذه القواعد العقلية، ومن تلك الأمثلة من يفهم أن عيسى عليه السلام جزء من الإله استدلالا بقوله تعالى: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النِّسَاءِ: 171]، ووجه الخلل هنا إغفاله للمحالات العقلية التي تلزم من مقولته هذه، وهذه المحالات هي:

1. حدوث الإله.

[1] ينظر: القرافي، شرح تنقيح الفصول، ص96

[2] المرجع نفسه، ص96

2 ـ مشابهته للحوادث في التغير والافتقار إلى المخصص بمقدار مخصوص من المقادير المركبة.

3 ـ انعدام حقيقة الألوهية بالكلية لأنه لو كان عيسى عليه السلام حلَّ فيه جزء من الإله فقد انعدم إذاً الإله لوجوب انعدام الحقيقة الكلية بانعدام جزئها وعيسى عليه السلام إنما حصل فيه جزء من الإله وجزء الإله ليس بإله فقد انعدم إذاً الإله بالكلية.[1]

وقد كان وضع إطار فكري يتضمن القواعد العقلية وترتيبها في نسق معرفي ينتج المفاهيم والحجج الباعث لدى كثير من العلماء لخوض غمار التأليف ومن أمثلة ذلك ما ذكره الغزالي في تأليف كتابه "معيار العلم" حيث قال: "لما كثر في المعقولات مزلة الأقدام، ومثارات الضلال، ولم تنفك مرآة العقل عما يكدرها من تخليطات الأوهام وتلبيسات الخيال، رتبنا هذا الكتاب معيارا للنظر والاعتبار، وميزانا للبحث والافتكار، وصيقلا للذهن، ومشحذا لقوة الفكر والعقل، فيكون بالنسبة إلى أدلة العقول كالعروض بالنسبة إلى الشعر."[2]

المطلب الرابع: التبصر بعلل وحِكَم الأحكام الشرعية

تمثل الأحكام الشرعية ميدانًا حقيقيا لتكوين العقلية الإسلامية، تلك العقلية التي تتبصر العلل وتتأمل الحِكَم التي أُنيطت بها الأحكام، والمتأمل للمنهج النبوي في الإعداد الدعوي يجد أن التوجيه نحو استخراج حكم الشريعة ومقاصدها كان إحدى خطوات هذا المنهج الرشيد، وحين أسس المنهج النبوي لهذه الآلية كانت ملمحا مميزا لفقهاء الصحابة رضي الله عنهم.

"المنقول عن الصحابة رضوان الله عليهم الفحص عن حكم الشريعة وأسرارها بحسب الإمكان، ومن حكمة الشريعة الاطلاع على حكم الشرع في الأصل، فيكون ذلك أدعى لطواعية العبد وسكون نفسه للحكم.[3]

---

[1] ينظر: السنوسي، شرح المقدمات، ص129

[2] الغزالي، معيار العلم، ص59

[3] القرافي: شرح تنقيح الفصول ص410

ويبين السرخسي أن من أعظم الأمور فضلا بعد إدراك أصل هذا الدين السير على منهاج الأئمة السابقين في قدح زناد العقول لمعرفة أحكام الشريعة وتبصر حِكَمها لأن بذلك يتأتى الفصل بين ما يحل وما يحرم وهذا معنى الحكمة التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ) حيث فسرت الحكمة في قول ابن عباس وغيره بأنها علم الفقه، بل إن معرفة أسرار الشريعة وحكمها هو المراد بقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النَّحْلِ: 125][1]

وأشار المراغي إلى أن معرفة أسرار الشريعة تدخل في إعمال القوة العقلية التي وجهت إليها الآية الكريمة وهي قوله تعالى: (وَيُرِيكُمْ آياتِه لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[2]

ولقد دون لنا العلماء الراسخون من الأمة علوما كثيرة يُستعان بها على فهم حكم الشريعة وأسرارها، ويأتي على رأس هذه العلوم علم أصول الفقه حيث إن من فوائده إدراك ما في الشريعة من الحكم وما تحويه من أسرار ومقاصد.[3]

إن إدراك سلم المصالح والمفاسد يتطلب عملا عقليا مضنيا، والخلل فيه ينتج خللا في إطلاق الأحكام على أفعال المكلفين كما بين ذلك الشاطبي.[4]

إن تدبر الأوامر والنواهي الشرعية يعد إحدى السبل التربوية التي تبناها المنهج القرآني علميا وروحيا.[5]، وهو في الوقت ذاته سبيل للتوصل إلى البصيرة الدعوية.[6]

لقد كان بيان علل الأحكام وحكمها مجالا رحبا من مجالات توسيع أفق العقل الإسلامي، وحين كان توسيع هذا الأفق ضرورة من ضروريات الخطاب الدعوي فإن مواصلة الدعاة إلى الله الجهود التي بذلها علماء الأمة يعد بابا من أبواب الإعداد الفكري المأمول.

---

[1] ينظر: السرخسي: محمد بن أحمد بن أبي سهل، بيروت، دار المعرفة. ج1، ص9، وينظر أيضا في أهمية الحكمة في الدعوة: القحطاني، سعيد بن علي بن وهب، فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري، ط1 وزارة الأوقاف السعودية، 1421هـ، 1/ 187.

[2] المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، ط1، القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي، (1365هـ - 1946م)، (145/1)

[3] ينظر: السلمي، عياض بن نامي، أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله، ط2، الرياض، دار التدمرية (1426هـ - 2005م) ص19

[4] الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط1، مصر، دار ابن عفان، (1417هـ/ 1997م) (177/5)

[5] الهوال، حامد عبده، التعليم والتعلم في القرآن الكريم، ط1(1401هـ.1981م) الكويت، مكتبة الفلاح، ص50

[6] ينظر: العنزي، عزيز بن فرحان، البصيرة في الدعوة إلى الله، ط1، أبو ظبي، دار الإمام مالك (1426هـ - 2005م)، ص68

المطلب الخامس: التمرس على التفريق بين درجات المعرفة

حين كان الإعداد الفكري للدعاة إلى الله تعالى لا بد وأن يسير على منهج علمي فإن من أبرز مفردات هذا المنهج التمرس على التفرقة بين درجات المعرفة والتمييز بين يقينها وظنها، بين الضروري منها والنظري.

إن هذا التمرس يحقق للدعاة عدة أمور:

1 . يرتب المعارف في الذهن، ويمنع وقوع الخلل في تقديم ما ينبغي أن يقدم منها وتأخير ما يجب تأخيره.

2 . يؤسس ميزانا للحكم على المعارف التي تتقاسم الساحة الفكرية التي يحيى فيها الدعاة.

3 . يسهم في التعامل الفعال مع التراث الإنساني عامة والإسلامي خاصة.

من هنا تأتي أهمية الجهد العقلي في تتبع المعارف ومعرفة أنماطها المختلفة.

إن "عملية البحث عن المعرفة عملية تتعاون فيها وسائل الحس الظاهرة والباطنة والآلات والأدوات التي تستخدمها الحواس وموازين العقل الفطرية والمكتسبة ومعارفه السابقة التي اكتسبها بنفسه والتي تلقاها عن غيره مما اكتسبه الآخرون من معارف." [1]

إن إعمال العقل في التفريق بين درجات المعرفة هو إحدى العمليات التي توظف من خلالها طاقته لذلك "ليس كل ما يدركه الفكر من قبيل اليقين بل هو ينقسم إلى أقسام الإدراك، وعلى العقل أن يصنف معارفه ويضع كلا منها في مرتبته ودرجته التي يستحقها ضمن قوانينه الفطرية والمكتسبة. [2]

من هنا وجدنا أن إيضاح درجات المعرفة كان من الإسهامات المعرفية لرواد حضارتنا الإسلامية ومن ذلك بيانهم لمفاهيم اليقين والظن والشك والتقليد، فالظن ما كان إدراكا راجحا لنسبة من حيث إنها واقعة أو لا، والجهل يطلق على إدراك هذه النسبة إدراكا جازما وليس مطابقا للواقع، واليقين إدراك لها إدراكا جازما مطابقا للواقع مع كونه لا يقبل تغيرا، وأما التقليد فيطلق على إدراك لها إدراكا مطابقا للواقع مع قبول التغير. [3]

---

[1] الصبان، محمد بن علي، حاشية على السلم، مكتبة الحلبي، ط2، ص30

[2] الميداني، ضوابط المعرفة ص133

[3] ينظر: الصبان، محمد بن علي، حاشية على السلم ص30

وحين كان مصطلحا القطع والظن من المصطلحات المعرفية الكبرى كان ولا بد من بيان التفرقة بينهما تفرقة تضمن عدم اختلال البناء المعرفي المترتب عليهما، وقد ذكر العلماء أن المدار في التفريق بينهما على قبول الاحتمال، فالقطع يطلق على نفي الاحتمال أصلا، وعلى نفي الاحتمال الناشئ عن دليل[1] وأما الظن فهو: الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض.[2]

ومن بيان العلماء لسلم المعارف بيانهم لأقسام العلم وأن منه القديم والحادث، فالقديم هو القائم بذاته تعالى، ولا يشبه بالعلوم المحدثة للعباد، وأما المحدث فإن له أقساما ثلاثة: بديهي، وضروري، واستدلالي.[3]

وقد عُرَّف العلم الضروري بأنه ما لا يحتاج إلى نظر وتأمل سواء أكان مفتقرا إلى تجربة أو حدس أم لا كتصور وجودك وإدراك أن الواحد نصف الاثنين، وأما العلم النظري فقد عُرِّف بأنه ما احتاج إلى الفكر.[4]

ولم يكتف العلماء ببيان درجات العلم والتفريق بين يقينه وظنيه، بل تأملوا درجات حصول المعرفة في النفس، وأطلقوا على كل صورة من هذه الصور مفهوما.[5]

إن ما ذكره العلماء ندلل من خلاله على عدة أمور وهي:

الأول: عظم المخزون المعارفي لهذه الأمة وإبداعها العظيم في تاريخ المعرفة الإنساني.

الثاني: أنها لم تكن عالة أبدا على التراث المعرفي اليوناني أو غيره.

الثالث: أن هناك فلسفة معرفية حقيقية حواها التراث الإسلامي تصلح وبجدارة لأن تؤسس العقلية الإسلامية وتمد الدعاة بكل ما يحتاجه تأسيسهم الفكري.

---

[1] التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر، شرح التلويح على التوضيح، مصر، مكتبة صبيح، (63/1)

[2] الجرجاني، التعريفات، ص144

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص155

[4] الملوي، شهاب الدين أحمد بن عبد الفتاح، الشرح الكبير على السلم المنورق في علم المنطق، دار الكويت، دار الضياء، ص144

[5] وممن دوَّن ذلك الكفوي حيث ذكر هذه الدرجات كما يلي: الدرجة الأولى: الشعور، الدرجة الثانية: الإدراك، الدرجة الثالثة: الحفظ: وهو استحكام المعقول في العقل، الدرجة الرابعة: التذكر: وهو محاولة النفس استرجاع ما زال من المعلومات، الدرجة الخامسة: الذكر: وهو رجوع الصورة المطلوبة إلى الذهن، الدرجة السادسة: الفهم: وهو التعلق غالبا بلفظ من مخاطبك، الدرجة السابعة: الفقه: وهو العلم بغرض المخاطب من خطابه، الدرجة الثامنة: الدراية: وهو المعرفة الحاصلة بعد تردد مقدمات. الدرجة التاسعة: اليقين: وهو أن تعلم الشيء ولا تتخيل خلافه. (ينظر: الكليات، الكفوي ص67، وهناك الكثير من الدرجات التي تلي اليقين تركناها اختصارا.)

المطلب السادس: تفعيل دور المؤسسات المكونة للعقلية الدعوية

إذا كانت هذه هي آليات الإعداد الفكري للدعاة إلى الله تعالى فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما هي المؤسسات التي كانت تقوم بهذا الإعداد إبان ازدهار الحضارة الإسلامية؟ وكيف يمتد هذا الدور مع تطور الحياة الإنسانية في الواقع المعاصر؟

(أ) مؤسسات الإعداد الفكري في التاريخ الإسلامي

إننا لو رجعنا إلى التاريخ المعرفي للأمة الإسلامية سنجد أنه كان هناك العديد من المؤسسات التي كانت تعمل على تشكيل العقلية الإسلامية عامة والدعوية خاصة، ومن أولها المسجد حيث "كان المسجد مركزًا تربويًّا، يربي الناس على الفضيلة، وحب العلم، وعلى الوعي الاجتماعي، ومعرفة حقوقهم وواجباتهم، وكان المسجد مصدر إشعاع خلقي، يتشبع فيه المسلمون بفضائل الأخلاق، وكريم الشمائل."[1]

وكان في البلاد الإسلامية علاوة على ذلك عدد لا يحصى من دور القرآن ودور الحديث وأماكن الدراسة الأخرى كالمكاتب وهي الكتتاتيب والدور والقصور والربط والزوايا والبيمارستنات ومجالس المناظرة ومجالس الوعظ ومجالس الإملاء والتحديث في الدكاكين والأسواق والندوات الأدبية ودور العلم وهي خزائن الكتب إلخ."[2]

وقد "حفلت البلاد الإسلامية منذ أواسط القرن الرابع الهجري بعدد كبير من المعاهد والمدارس الكبرى القائمة بذاتها المستقلة عن الجوامع."[3]

ومن أمثلة ذلك أنه كان في دمشق وحدها زهاء ثلاث مئة مدرسة في سفح جبل قاسيون ما تزال آثار كثير منها على شكل قباب تشرف على بعض الحدائق العامة، هذا عدا عن المدارس التي كانت في قلب المدينة، كالمدرسة الظاهرية التي بناها الملك الظاهر، والمدرسة النووية التي بناها نور الدين الزنكي، وبقي التعليم في هذه المدارس حرا لا مركزيا من حيث المناهج، والكتب والأساليب، مع ارتباطها ماليا بالدولة التي تجري لها الجرايات، وتخصص لها الأوقاف، والهبات دون أن تقيدها نظام معين، أو مناهج محدودة، ثقة منها بالعلماء الأفذاذ الذين كانوا يديرونها، ويغذونها بالعلم.[4]

---

[1] عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، ط25، دار الفكر، (1428هـ.2007م)، ص109

[2] ناجي معروف، نشأة المدارس المستقلة في الإسلام، مطبعة الأزهر، (1966م) ص5

[3] المرجع نفسه، ص5

[4] عبد الرحمن النحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، ص120

إن هذه المؤسسات قد قامت بدورها في الماضي وأنجبت لنا آلاف العلماء والدعاة الذين شكلوا برهانا على شمولية المعرفة الإسلامية.

يقول "بريفولت" مؤلف كتاب "بناء الإنسانية: "وقد نظم اليونان المذاهب، وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات، ولكن أساليب البحث في دأب وأناة، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبي كل ذلك كان غريبًا تمامًا عن المزاج اليوناني.[1]

(ب) المؤسسات المعنية بالإعداد الفكري للدعاة في الواقع المعاصر

لا شك أن المؤسسات المعنية بالإعداد الفكري للدعاة إلى الله في الواقع المعاصر تتشعب نظرا للتشعب الحضاري والمعرفي الذي أضحت فيه الإنسانية حيث لا يمكن أن تتحمل مؤسسة واحدة مسؤولية هذا الإعداد ولكن يمكن ذكر أبرز هذه المؤسسات.

1 . الكليات والمعاهد التي تخرج المتخصصين في مجال الدعوة إلى الله، ويتحقق الدور المنوط بهم من خلال جعل الإعداد الفكري للدعاة أولوية من خلال تكامل معرفي بين العلوم الشرعية أولا وبينها وبين العلوم الإنسانية ثانيا.

2 . المؤسسات التي يعمل فيها الدعاة والوعاظ من وزارات وإدرات الأوقاف، ويتحقق الدور المنوط بهم من خلال ما يلي:

- عقد الدورات التي تستهدف بيان مكانة العقل وأدواره في الإسلام.
- عقد برامج تطبيقية تنطلق من التأصيل الفكري في الوحي الإلهي ويتم فيها التدريب العملي على مزاولة أدوات التفكير المختلفة.
- إطلاع الدعاة على القضايا العلمية المعاصرة.[2]

---

[1] عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني، الحضارة الإسلامية، أسسها ووسائلها، دار القلم، دمشق، ص130، ط1(1418هـ-1998م)

[2] ينظر: السعيد حجازي، محمد شريف عبد الرحمن، وعي الدعاة إلى الله ببعض القضايا العلمية المعاصرة، دراسة ميدانية، مجلة العلوم التربوية والنفسية، جامعة القصيم، مجلد8، عدد2، (1436هـ . 2015م)، وينظر أيضا: البرامج التي تقيمها الهيئة العامة للشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة في إعداد الدعاة، موقع الهيئة https://www.awqaf.gov.ae/ar تم زيارة الموقع بتاريخ 2023/4/14، والبرامج العلمية بالمنتدى الإسلامي للثقافة الإسلامية بالشارقة، موقع المنتدى: https://e-/muntada.ae، تم زيارة الموقع بتاريخ 2023/4/12

إن مؤسساتنا التربوية والدعوية اليوم من مساجد ومدارس وجامعات ودور إفتاء ودور نشر وغيرها يقع على عاتقها مواصلة الجهد لتفعيل آليات الإعداد الفكري التي قررها المنهج المعرفي الإسلامي.

ولا شك أنه قد حدثت نقلة نوعية في جوهر ومظهر هذه المؤسسات الدعوية والتربوية، واستفادت من الطفرة التكنولوجية والمعلوماتية التي شهدها العصر الحديث مما يؤهلها لتقديم محتوى يؤسس لعقلية دعوية واعية.

نتائج البحث:

1 ـ يقصد بالإعداد الفكري تهيئة القوة العاقلة لتقوم بوظيفتها في استكشاف المجهول وترتيب المعارف والتوصل إلى النتائج.

2 ـ مما يدل على أهمية الإعداد الفكري للدعاة إلى الله تعالى أن هناك حاجة إنسانية إلى التفكير.

3 ـ السبيل للتصدي للشبهات هو فهم الوحي الإلهي وتدبره والإلمام ببراهينه وحججه، وكل ذلك يدلل على أهمية التأسيس الفكري للدعاة إلى الله تعالى.

4 ـ لا بد تجاه الاتساع في كم وكيف المستجدات المعرفية من منهجية فكرية رصينة تستطيع أن تتعاطى مع تلك المستجدات انطلاقا جامعا بين الاستهداء بأنوار الوحي الإلهي ومراعاة الواقع الإنساني.

5 ـ إن فساد القوة النظرية واختلالها عند بعض المدعويين يشير إلى ضرورة التمكن الفكري لدى الدعاة إلى الله تعالى ليستطيعوا السير على منهاج الأنبياء والمرسلين في إصلاح الفكر السقيم.

6 ـ تعد المفاهيم أساسًا لا غنى عنه من أسس الإعداد الفكري، ذلك لأنها تعطينا خلاصة للمضامين المعرفية التي تمثلها الأفكار.

7 . معرفة إمكانات العقل والوعي بقدراته ووظائفه يمثل أساسًا من أسس انطلاقته الفكرية.

8 ـ حين كان العقل هو المزية العظمى التي اختص الله بها الإنسان فإن تلك الخاصية تظهر جليا في مجموعة من القواعد العقلية التي يستطيع العقل من خلالها الانطلاق نحو آفاق المعرفة.

9 ـ تمثل الأحكام الشرعية ميدانًا حقيقيا لتكوين العقلية الإسلامية، تلك العقلية التي تتبصر العلل وتتأمل الحكم التي أُنيطت بها الأحكام.

10 ـ إعمال العقل في التفريق بين درجات المعرفة هو إحدى العمليات التي توظف من خلالها طاقته.

الخاتمة:

وبعد هذه الإطلالة على الإعداد الفكري للدعاة إلى الله يتبين لنا عظم أهميته، وشمولية أبعاده، وكيف أنه كان حجر الأساس في نجاح العمل الدعوي بكافة وسائله وأساليبه عبر التاريخ الإسلامي، وكيف أن هذا الإعداد يتأتى بتفعيل أدوات التكوين الفكري الذاتي منها والمجتمعي.

وأوصي في ختام البحث بما يلي:

1 ـ قيام العديد من الدراسات العلمية التي تستجلي أسس المنهجية الفكرية في الإسلام.

2 ـ اهتمام المؤسسات التعليمية بتقريب أسس البناء الفكري تقريبا عصريا للدعاة إلى الله تعالى.

قائمة المصادروالمراجع:

- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، صيد الخاطر، تحقيق: حسن المساحي سويدان، ط5، دمشق، دار القلم (1425هـ - 2004م)
- ابن العربي، محمد بن عبد الله أبو بكر، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، تحقيق: محب الدين الخطيب، محمود مهدي، ط2، بيروت، دار الجيل، (1407هـ - 1987م)
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب، الفوائد، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، (1393هـ - 1973م)
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، الإحكام في أصول الأحكام، تح.: أحمد محمد شاكر، بيروت، دار الآفاق الجديدة.
- أحمد عمر هاشم، الدعوة الإسلامية منهجها ومعالمها، مكتبة غريب.
- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق: أبو اليزيد العجمي، القاهرة، دار السلام، (1428هـ - 2007م)
- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط1، دمشق، دار القلم، (1412هـ)
- التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر، شرح التلويح على التوضيح، مصر، مكتبة صبيح.
- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف، التعريفات، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية،
- الجصاص، أحمد بن علي أبو بكر، الفصول في الأصول، ط2، الكويت، وزارة الأوقاف الكويتية، (1414هـ - 1994م)
- الجويني، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، التلخيص في أصول الفقه، تحقيق: عبد الله جولم النبالي، بشير أحمد العمري، بيروت، دار البشائر الإسلامية.
- الحجوي، محمد بن الحسن بن العربيّ بن محمد، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، (1416هـ- 1995م)
- الخطيب، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، الفقيه والمتفقه، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، ط2، السعودية، دار ابن الجوزي، (1421هـ)
- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، التفسير الكبير، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (1420هـ)
- السرخسي، أصول السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل، بيروت، دار المعرفة.
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط1، مؤسسة الرسالة، (1420هـ -2000م)
- السعيد حجازي، محمد شريف عبد الرحمن، وعي الدعاة إلى الله ببعض القضايا العلمية المعاصرة، دراسة ميدانية، مجلة العلوم التربوية والنفسية، جامعة القصيم، مجلد8، عدد2، (1436هـ.2015م)
- السلمي، عياض بن نامي، أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله، السلمي، ط2، الرياض، دار التدمرية (1426هـ - 2005م)
- سليمان دنيا، التفكير الفلسفي الإسلامي، ط1، مصر، مكتبة الخانجي (1387هـ.1967م)
- السمعاني، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد، قواطع الأدلة في الأصول، تحقيق: محمد حسن اسماعيل الشافعي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، (1418هـ/1999م)
- السنوسي، أبو عبد الله محمد بن يوسف، شرح المقدمات، تحقيق نزار حمادي، ط1، مكتبة المعارف (1430 ـ2009م)

- الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط1، مصر، دار ابن عفان، (1417هـ/ 1997م)
- الصبان، محمد بن علي، حاشية على شرح السلم للملوي، ط2، القاهرة، مطبعة مصطفى الحلبي.
- عبد العزيز بن محمد النغيمشي، علم النفس الدعوي، دار المسلم 1415ط3 1432هـ.2011م
- عبد الله شحاته، الدعوة الإسلامية والإعلام الديني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م
- علي محفوظ، هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، ط9، دار الاعتصام، (1399هـ.1979م)
- العنزي، عزيز بن فرحان، البصيرة في الدعوة إلى الله، ط1، أبو ظبي، دار الإمام مالك (1426هـ - 2005م)
- العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- فؤآد زكريا، التفكير العلمي، سلسلة عالم المعرفة، (3) (1978م)
- الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، (1416هـ - 1996م)
- القاري، علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ط1، بيروت، دار الفكر، (1422هـ - 2002م)
- القحطاني، أبو محمد صالح بن محمد بن حسن، تحقيق: متعب بن مسعود الجعيد، مجموعة الفوائد الهية على منظومة القواعد الفقهية، ط1، السعودية، دار الصميعي، (1420هـ - 2000 م)
- القحطاني، سعيد بن علي بن وهب القحطاني، فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري، ط1 وزارة الأوقاف السعودية، 1421هـ
- القحطاني، سعيد بن علي بن وهب، مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1(1415هـ.1994)
- مالك بن نبي، دور المسلِم ورسالته فِي الثلثِ الأَخِيرِ مِنَ القَرنِ العِشرِين، ط1، دمشق، دار الفكر، (1412هـ.1991م)
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب، أدب الدنيا والدين، دار مكتبة الحياة، (1986م)
- المحاسبي، الحارث بن أسد، ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه، تحقيق: حسين القوتلي، ط2، بيروت، دار الفكر (1398هـ)
- المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، ط1، القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي، (1365هـ - 1946م)
- الملوي، شهاب الدين أحمد بن عبد الفتاح، الشرح الكبير على السلم المنورق في علم المنطق، دار الكويت، دار الضياء.
- المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ط1، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، (1356هـ)
- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، ط4، دمشق، دار القلم، (1414هـ - 1993م)
- الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، دار القلم، ط1(1400هـ.1980م)
- النشار، علي سامي، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، ط1، دار الفكر العربي، (1367هـ .1947م)
- الهوال، حامد عبده، التعليم والتعلم في القرآن الكريم، ط1، الكويت، مكتبة الفلاح، (1401هـ.1981م)

المواقع الالكترونية

الهيئة العامة للشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة، https://www.awqaf.gov.ae/ar

المنتدى الإسلامي للثقافة الإسلامية بالشارقة، https://e-muntada.ae